د. محمد السيد سعيد *

كيف نفهم مؤتمر أنابوليس؟ (1)

هناك مطلب جوهري ستجعله إسرائيل قلب استراتيجيتها التفاوضية في «أنابوليس» ولأول مرة في تاريخ المفاوضات العربية - الإسرائيلية، وهو فرض الاعتراف بأن «إسرائيل دولة يهودية»!. لذا فالمؤتمر بهذا المعنى يأتي لفرض «يهودية الدولة» أكثر بكثير من التوصل إلى تعايش سلمي بين الدولة وضحيتها الأساسية: الشعب الفلسطيني.

مؤتمر غريب وعجيب ومثير لكل علامات الاستفهام، وقد لا نستطيع فهمه إلا بعد سنوات.

«أنابوليس» ذاتها مدينة محرومة من الهوية والخصوصية، لا طعم لها وهناك القليل جداً مما يخصها من بين آلاف المدن التي انبثقت مع الطرق السريعة وصارت مدناً تجارية من دون علة أو ميزة أصيلة.

هذا عن المكان، ولكن التوقيت أكثر أهمية وأكثر غموضاً بكثير، ولا يمكننا أن نفهم طبيعة هذا المؤتمر من دون أن نأخذ التوقيت في الاعتبار.

● كيف نفهم هذا المؤتمر؟

المنطق الشائع في الدعاية الرسمية الأميركية غير مفيد كثيراً، فمؤتمر أنابوليس سوف يجسد رؤية بوش القائمة على دولتين فلسطينية وإسرائيلية تعيشان جنباً إلى جنب في سلام، وثمة الآن فرصة لأن يطبق بوش رؤيته، لأنه أخيراً وجد في قمة السلطة الفلسطينية معتدلين يرغبون في وقف الإرهاب وتفكيك بنيته الأساسية... إلخ.

في المقابل فالمنطق الشائع في الصحافة العربية يصوره كمحض خديعة، سوف يبيع لنا الإسرائيليون السراب، ويحصلون منا على الاعتراف ويرغموننا على القيام بتنازلات عن حقوقنا الجوهرية من دون أن يمنحونا شيئاً، وحتى لو وقعوا معنا اتفاق «سلام» فمصيره الحتمي سيكون مثل اتفاق «أوسلو» واتفاق «واي ريفر»، وغيره من الاتفاقيات التي لم تطبق منها إسرائيل سوى فقرات تمهيدية، ثم مزقتها بالقنابل وعادت لتلغيها من جانبها وحدها.

الواقع أن التفسير الشائع في الصحافة العربية لا يبدو مفيداً تماماً، فالأوصاف التي تطلق على مؤتمر أنابوليس لا تميزه عن غيره، بينما يكاد كل شيء يختلف في الواقع الموضوعي بين اللحظة الراهنة وأي لحظة سابقة في تاريخ الصراع العربي-الإسرائيلي.

والمذهل حقاً في مؤتمر أنابوليس أنه يكاد يشبه «حارة» مظلمة في مدينة سينمائية بنتها هوليوود لتصوير فيلم «أكشن» عن حروب المستقبل، فما يشغل بال أميركا فعلاً ليس السلام وإنما الحرب، ولم تبذ إدارة بوش أدنى اهتمام بقضية السلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين إلا في سياق وحيد، وهو المرحلة الراهنة في مشروع بوش العسكري ضد إيران.

● «أنابوليس» مقابل «مدريد» و«كامب ديفيد»

وعندما يعقد مؤتمر أنابوليس سيكون حدثاً مختلفاً جداً عما سبقه من مؤتمرات للغرض نفسه، فمؤتمر مدريد عام 1991 كان حدثاً هائلاً بكل المقاييس، إذ حضرته كل أمم الأرض تقريباً، وكان الموضوع الأول على جدول أعمال العالم، وأتيح للشعب الفلسطيني أن يخاطب العالم كله بكلمة مركزة اجتمعت على إنشائها وصياغتها خيرة العقول الفلسطينية، وكان الوفد الفلسطيني هو «الطفل المدلل» للعالم كله بالرغم من أن الرئيس الفلسطيني أبو عمار كان قد وقف بصف صدام حسين قبل هذا المؤتمر بشهور قليلة.

وحتى إذا تركنا مدريد والتقاليد الامبراطورية الأوروبية الفخمة لنذهب إلى مؤتمر كامب ديفيد الأميركي عام 2000 لوجدنا أموراً مختلفة كثيراً عن «أنابوليس» الحالية، فرغم التقشف الظاهر في المنتجع بالمقارنة بقصور المؤتمرات، فهو كان محط أنظار العالم ومناط آماله في أحداث اختراق في أصعب صراعات الدنيا وأكثرها تعذراً على الحل، كان الرئيس كلينتون قد ترك كل شيء تقريباً من مهامه الرئاسية ليتفرغ كلية لعشرة أيام متصلة للمشاركة بنفسه وبرجاله الأشد ذكاء للمساعدة على إيجاد حل سريع للمشاكل التي أعاقت بناء السلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين. وعلى أي حال، فهو كان يفاوض بنفسه أهم قيادتين سياسيتين وعسكريتين أنتجهما المجتمع الإسرائيلي والفلسطيني في نهاية القرن العشرين: أي باراك من ناحية، وأبو عمار من ناحية أخرى، وكان بوسع الرجلين بالطبع أن يقنعا مجتمعيهما بالحل الذي انتهيا اليه في ما لو كانا قد فعلا، والآن تبدو الصورة على هذا الجانب مختلفة تمام الاختلاف، فالرئيس الأميركي كان ناقماً على سلفه كلينتون، لأنه كان انخرط بنفسه في المفاوضات، وهو، أي الرئيس بوش، لا يملك المهارات الهائلة التي كان يملكها سلفه ومنها معرفته الأفضل كثيراً بالشأن الفلسطيني، ثم أن الرجلين المتفاوضين باسم إسرائيل وفلسطين بالغا الضعف في وقت يتسم فيه الصراع بمستوى غير مسبوق من العنف والشدة.

● انقلابات ثقافية وسياسية

ليس ذلك كله هو أهم أوجه الاختلاف بين حالة الصراع التفاوضي في مدريد عام 1991 وكامب ديفيد 2000 وأنابوليس في اللحظة الراهنة، فأهمها وأكثرها تأثيراً على النتائج المحتملة هو التغير بالغ العمق في موقف المجتمع الإسرائيلي من الفلسطينيين والعرب، وهو تغير يمكن وصفه بالانقلاب الثقافي والسياسي، لم يكن المجتمع الإسرائيلي متفهماً لموقف العرب في أي وقت، ولكنه لم يكن أشد عداء للعرب والفلسطينيين منه في هذه اللحظة، ولا يكاد أي عربي يدرك حجم الاختلاف بين حالتي المجتمع الإسرائيلي في نهاية التسعينيات مثلاً عنه في اللحظة الحالية، والواقع أنه حتى الآن لم تحظَ دراسة المجتمع الاسرائيلي باهتمام يذكر، فنسبة عالية جداً من المجتمع الاسرائيلي الراهن وأشدها نشاطية ومشاركة في الشأن السياسي جاءت من جحافل الهجرة السوفييتية المذهلة خلال التسعينيات، وهي تمتاز بقدر هائل من القسوة والمادية السوقية والرغبة في العنف والغطرسة الدينية والثقافية وكراهية العرب والقوميات غير الغربية عموماً.

والمجتمع الإسرائيلي، الذي يتفاوض معه الفلسطينيون اليوم، يختلف في عامل آخر لم يوله العرب اهتماماً يذكر من قبل رغم أنه كان شديد الأهمية، وهو أنه أطاح باليسار الصهيوني وغير الصهيوني تماماً تقريباً، كان لهذا اليسار دور في تأسيس فهم للحل السياسي للصراع العربي الإسرائيلي يعترف ولو بحق عملي للشعب الفلسطيني، وفي غياب هذا اليسار وهيمنة ذهنية يمينية عنفوية سوقية تامة لا يمثل الفلسطينيون أكثر من «عامل إعاقة أو عامل محبط» بالنسبة الى المشروع الذي ينخرط فيه هذا المجتمع الإسرائيلي، وصورة هذا المجتمع عن الفلسطينيين غاية في الغرابة فهم يبدون وكأنهم شعب ألقي به بالمصادفة في طريق إسرائيل إلى المجد ليسبب له فقط المعاناة! ويصور آخر عدد من مجلة «مركز بيجين السادات» هذه الصورة عن الفلسطينيين ويصفهم بأنهم «شعب غير قادر على أن يحكم نفسه بنفسه... ولا على بناء علاقات جيدة مع إسرائيل». بل إن انهيار اليسار، بل والوسط الإسرائيلي، أفضى إلى تصفية فكرة الحاجة إلى التعايش مع العرب بصورة سلمية، لم يعد لصورة الحل الوسط والتعايش السلمي مع العرب والاندماج في المحيط العربي قيمة معترف بها في إسرائيل، فهناك رفض لانتماء إسرائيل إلى المنطقة، وتأكيد على انتمائها الى العالم الغربي، واحتقار لقيمة العيش في سلام مع العرب والجيران الإقليميين وتسليم بأن العيش في توتر دائم مع الفلسطينيين والعرب أمر حتمي ومصيري، أو ربما يكون مفيداً لأنه يمنح العقيدة الصهيونية حياة ملتهبة ومستمرة.

ولا يقل أهمية عن ذلك كله أن الوعي الإسرائيلي واضح تماماً في اعتقاده بأنه حقق النصر ضد الفلسطينيين، وسحق انتفاضتهم، وبدد تحالفاتهم العربية والدولية، وفي ذهن إسرائيل أيضاً أنها حققت ذلك أولاً من خلال فكرة الفصل والجدار تحديداً، وبالتحالف مع إدارة أميركية متفهمة أكثر من غيرها لحاجات إسرائيل ومصالحها، وعبر دور أكثر انضباطاً للجماعات والجاليات اليهودية في الخارج.

وينعكس هذا التغير متعدد الأبعاد والمستويات في التركيبة الإسرائيلية في مطلب جوهري ستجعله إسرائيل قلب استراتيجيتها التفاوضية في «أنابوليس» ولأول مرة في تاريخ المفاوضات العربية الإسرائيلية، وهو فرض الاعتراف بأن «إسرائيل دولة يهودية»!

ولهذا التعبير قيمته الرمزية ومضاعفاته السياسية والمستقبلية الحاسمة، وقد يكون أهم المطالب التي رُفعت إسرائيلياً في أي منتدى أو مستوى منذ نشأتها على الإطلاق، وببساطة فهو يكرس «الشرعية الدينية» مقابل افتقار إسرائيل الى الأساس الموضوعي أو العدالي للشرعية القانونية الدولية، وهو يفلت إسرائيل من الالتزام بتطبيق القرار 194 والخاص بحق العودة «الى مساقط رؤوس» اللاجئين الفلسطينيين، ويمكن أن يوظف لاحقاً للتخلص من عرب 1948، ببداهة أنه يصادر تماماً على الحل القائم على بناء «دولة ديموقراطية علمانية في كل أرض فلسطين تحت الانتداب» باعتباره الحل الوحيد طويل المدى للصراع.

وهو بهذا المعنى مؤتمر لفرض «يهودية الدولة» أكثر بكثير من التوصل إلى تعايش سلمي بين الدولة وضحيتها الأساسية: الشعب الفلسطيني.

* كاتب مصري

صالح القلاب *

«المتشائِل»!!

إن الرئيس محمود عباس إن لم يكن متفائلاً بالفعل فإنه على الأقل «متشائل» حسب الكاتب الفلسطيني إميل حبيبي

لابد من التأكيد في «أنابوليس» على أن الأمور الرئيسة العالقة، القدس واللاجئين والمستوطنات والحدود والأمن والمياه، لاتزال عالقة، لكن ما يدعو إلى التفاؤل بالفعل ولو في الحدود الدنيا هو أن الأطراف العربية التي هي على اتصال دائم بالأميركيين بالنسبة إلى هذه المسألة تتحدث عن «جدية أميركية... حقيقية وفعلية هذه المرة»!!

يُبدي الرئيس الفلسطيني محمود عباس (أبو مازن) تفاؤلا حذراً تجاه مؤتمر «أنابوليس»، الذي ستبدأ مشاوراته التمهيدية يوم غد الاثنين، ثم ينعقد في اليوم الذي يليه (الثلاثاء) في جلسته الرئيسة، والإسرائيليون حسب رأيه مازالوا يضعون العراقيل ويسعون إلى إغراق هذا المؤتمر، وهذا التحرك في القضايا الثانوية المتعلقة بالأمن الذي لا يمكن ضبطه واستتبابه إلا بعد عودة الحياة إلى الأجهزة الأمنية الفلسطينية، وبعد المباشرة بإقامة مؤسسات الدولة المستقلة المنشودة.

وحسب أبو مازن، فإن ما يعتبر مؤشراً إيجابياً أن الرئيس الأميركي جورج بوش شدد على مبادرة السلام العربية التي حاول الإسرائيليون حذفها من جدول أعمال «أنابوليس» في الدعوات التي وصلت إلى تسع وأربعين دولة من بينها الأربع عشرة دولة التي تشكل لجنة الاتصال العربية التي شكلتها قمة الرياض الأخيرة.

وقال أبو مازن إن الجهود التي بذلها الأردنيون والمصريون والفلسطينيون والسعوديون هي التي جعلت الدولة الداعية، الولايات المتحدة الأميركية، توجه إلى سورية دعويين لحضور هذا المؤتمر: الأولى، بصفتها الخاصة، والثانية، على اعتبار أنها أحد أعضاء لجنة الاتصال العربية الآنفة الذكر التي شكلتها قمة الرياض الأخيرة، وكلفتها بمتابعة عملية السلام و«ترويج» مبادرة السلام التي أطلقها خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز عندما كان ولياً للعهد، وتبنتها قمة بيروت والقمم اللاحقة وأصبحت مبادرة للعرب كلهم وليس لدولة لوحدها وبمفردها.

ويبدو، حسب كل التقديرات وحسب المعلومات أيضاً، أن سورية لم تكتف في ما يتعلق بقضية الجولان التي تتمسك بضرورة إدراجها على جدول أعمال «أنابوليس» كشرط لحضور هذا المؤتمر بوعد الرئيس جورج بوش بأنه سيشير إلى هذه المسألة إشارة واضحة في خطاب الافتتاح، ولذلك فإنها دفعت وزير إعلامها محسن بلال إلى إطلاق التصريحات المتشددة التي أطلقها عشيّة القمة الثلاثية المصرية-الأردنية-الفلسطينية وعشيّة الاجتماع العربي الأخير الذي انعقد في إطار الجامعة العربية.

لكن وفي كل الأحوال فإن هذا المؤتمر بدأ يأخذ المزيد من الجديّة مع اقتراب موعد انعقاده، والواضح، كما قيل أكثر من مرة، أن الأهم من الانعقاد بحد ذاته هو ما سيتبعه من مفاوضات، بإشراف دولي يشارك فيه العرب من خلال لجنة الاتصال المشار إليها، إن هي لم تربط بجدول زمني واضح ومحدد فإنها ستعطى سقفاً أقصاه ستة شهور، حيث يعود «أنابوليس» إلى الانعقاد مرة أخرى ليراجع الأمور وليقول رأيه بصورة نهائية.

وهنا وكي لا يذهب المتفائلون بالتحليق عالياً أكثر من اللزوم فإنه لابد من التأكيد على أن الأمور الرئيسة العالقة، القدس واللاجئين والمستوطنات والحدود والأمن والمياه، لاتزال عالقة، لكن ما يدعو إلى التفاؤل بالفعل ولو في الحدود الدنيا هو أن الأطراف العربية التي هي على اتصال دائم بالأميركيين بالنسبة إلى هذه المسألة تتحدث عن «جدية أميركية... حقيقية وفعلية هذه المرة»!!

ولذلك وفي ضوء هذا كله فإن الفلسطينيين يبدون ارتياحاً واضحاً، ولهذا فإنه يمكن القول إن الرئيس محمود عباس (أبو مازن) إن لم يكن متفائلا بالفعل فإنه على الأقل «متشائل» حسب الكاتب الفلسطيني إميل حبيبي من عرب الـ48 في روايته الشهيرة: «أبو النحس المتشائل»!!

* كاتب وسياسي أردني

ياسر عبد العزيز *

السلطة الخامسة

ادخل إلى هذا العالم السحري، وابحث عن أحد تابوهاتك الثلاثة: الدين، والسياسة، والجنس، واغرق وسط ملايين من «نقرات» الحقائق، والأوهام، والأكاذيب، وما لم يعرف له اسم بعد. أو ضع اسم ملك أو رئيسك بين مزدوجين، واقرأ له وعنه، تصريحات، وتحليلات، وسير، وفضائح. حتى صديق طفولتك، يمكنك أن تصل إليه، فقط ضع اسمه أو اسم أي من أصدقائكما المشتركين على محرك البحث، الذي يمكن أن يقودك إلى بريده، وربما رقم هاتفه.

شاهد «الموديل» الجديد من نفس طراز سيارتك، أو احصل على رقم هاتف أقرب فرع «بيتزا هت»، أو ضع اسم فيروز، لتسمع فوراً أحلى أغنياتها. حتى هذا الفيلم الذي تحب، يمكنك أن تعرف سنة إنتاجه، واسم مخرجه، بل يمكنك أن تشاهده إن رغبت. ضع اسم مذهبك الديني، لتقرأ وتعرف ما لم تكن ستعرفه أبداً، كلاماً وصوراً ورسوماً، بعضها أقوال موزونة، والآخر لغو وما هو أكثر.

أين أنت الآن؟ أنت حيث يدار عالمنا اليوم، وتزرع به المخاطر والأفخاخ، أو تخلق به الفرص والمكاسب؛ أنت في الإنترنت... «بُقلنا... بِقلنا... شارتنا التي يعرفنا بها أصحابنا، بل وأعداؤنا».

لو كان أمبيدوكل حياً لغير مقولته التاريخية: «العالم مكون من عناصر أربعة: هواء، وماء، وتراب، ونار»، فقد كان حرياً به أن يضيف العنصر الخامس: «وإنترنت»؛ حيث يمكنك أن تسمع تلاوة للقرآن الكريم فريدة، وأن تعرف قصة «الزير سالم» كما رويت أول مرة، وأن تراجع حسابك البنكي، وتشتري كتباً، وبيتاً، وفطائر، وأن تتواصل مع أبنائك الذين يمضون عطلة الصيف خارج البلد وكأنك معهم... بل أكثر، وأن توقع على عريضة تناهض العولمة، وأن تنصب أو تسرق، أو تعلم «مجاهدين» كيف يعدون القنابل لمواجهة «فسطاط الشر»، أو تشاهد محاسن فتيات منحرفات فاتنات من هذا الفسطاط نفسه.

قيل إن في حياتنا ثلاث سلطات: التنفيذية، والتشريعية، والقضائية، وأن تلك السلطات أحياناً تعمل ضد مصالحنا، وكثيراً ما تخترق. ثم فجأة قالوا إن «الصحافة سلطة رابعة، موضوعة بتصرف المواطنين، بفعل الحس المدني للإعلام، وشجاعة الصحافيين، من أجل الانتقاد والرفض ومجابهة أخطاء السلطات الأخرى... أليست صوت من لا صوت له؟».

لكن أورسون ويلز حقق شريطه الأسطوري «المواطن كاين»، في العام 1940، مهاجماً فيه «السلطة المفرطة للصحافة»، وهو الفيلم الذي انتخب لاحقاً «أفضل فيلم في تاريخ السينما الأميركية»، فماذا يا ترى كان سيفعل اليوم أمام سلطة أكثر سطوة ونفوذاً وتغلغلا في مصير العالم.

لم يكد الوضع يستتب بعد للصحافة كـ«سلطة رابعة»، فإذا بسلطة جديدة تبزغ، تبدو أكثر قسوة وشراسة واحتواء، فهل ستقنع بالموقع الخامس في سلم النفوذ العالمي؛ أم ستنحو نحو الافتئات على غيرها من السلطات؟

كثيرون استبقوا الأحداث، وراحوا يبحثون عن سلطة خامسة قبل الآوان، فذهب بعضهم إلى أن تلك السلطة تتمثل في مؤسسات المجتمع المدني، حيث ينظم الناس أنفسهم طواعية، غير هادفين إلى الربح، لتحسين شروط الحياة، ومعالجة اعتوارات السلطات الأربع، ومساعدة الفئات الأضعف والأكثر تهميشاً، والعمل من أجل المستقبل، بأداء ورؤية وتأثير مستدام، لا يهدف إلى إنقاذ اليوم في مقابل التضحية بالغد، ولكن إلى تحسين حياتنا في الحاضر والمستقبل في آن.

آخرون ذهبوا إلى أن «مؤسسات الدقة العامة»، التي تنشأ وتدار من قبل الراشدين من الناس، ولمصلحة مجموع الناس، لتراقب أداء السلطات الأخرى، وتنصف من جارت عليه أو تجاوزته وطردته خارج نظامها، هي السلطة الخامسة. فيما رأى كثيرون أن السلطة الخامسة تتمثل في «النظام الاقتصادي»؛ هذا الأخطبوط العالمي، الذي «امتد كالسرطان في دم فقراء العالم ومهمشيه»، ورأس حربته الشركات المتعددة الجنسيات، والمؤسسات الأممية الثلاث: صندوق النقد والبنك الدوليان ومنظمة التجارة العالمية، وآلياتها «التي تستهدف توسيع الفقر لمصلحة تخصيص الغنى وتضخيمه». حتى إن بعضهم ذهب إلى اجتراح سلطته الخامسة التي لم تعرف إلا في مجتمعه المحلي، كالويسكي في اسكتلندا، والقات في اليمن، والديوانية في الكويت.

لكن ما يجعل الإنترنت سلطة خامسة بجدارة وتفرد، ومن دون منازع، أنها ليست وسيلة إعلام تخوض المنافسة وتبحث عن الحظوظ، ولا إحدى منظمات المجتمع المدني تواجه ضعف التمويل وقبود الحكومة وعزوف الناس، ولا حكومة يمكن أن تسقط، أو قضاء يمكن اختراقه، أو برلماناً يسهل حله، لكنها وسيط وحاضن وملاذ ومعبر عن كل هؤلاء، ومكمن خطر وعداء يجب الاحتراز منه، ومنجم فرص ومبادرات يجب الحرص عليه في آن.

الإنترنت اليوم هي وسيط اجتماعي عالمي، له سمة الذيوع والاستدامة؛ حيث تخبأ المعلومات وتلون وتفضح، وتمارس الجريمة والعبادة والجنس، وتكرس السيطرة في أعتى صورها، وتفرغ من مضمونها أيضاً، ويُدار الاقتصاد والسياسة، وتخاض الحروب بأنواعها، وتنتعش الحياة الاجتماعية أو تمتهن وتستغل أسوأ استغلال.

الإنترنت اليوم سلطةٌ خامسةٌ، لكننا لا نعرف بالضبط في أي يد هي، وكيف يمكننا إيقافها أو تهذيبها إن هي جارت علينا وهددت مصيرنا؟ أحسب أننا لم نعرف الإنترنت كما يجب بعد، وأننا كثيراً ما نعبث بها... وأنها تغرينا لنفعل ذلك.

* كاتب مصري

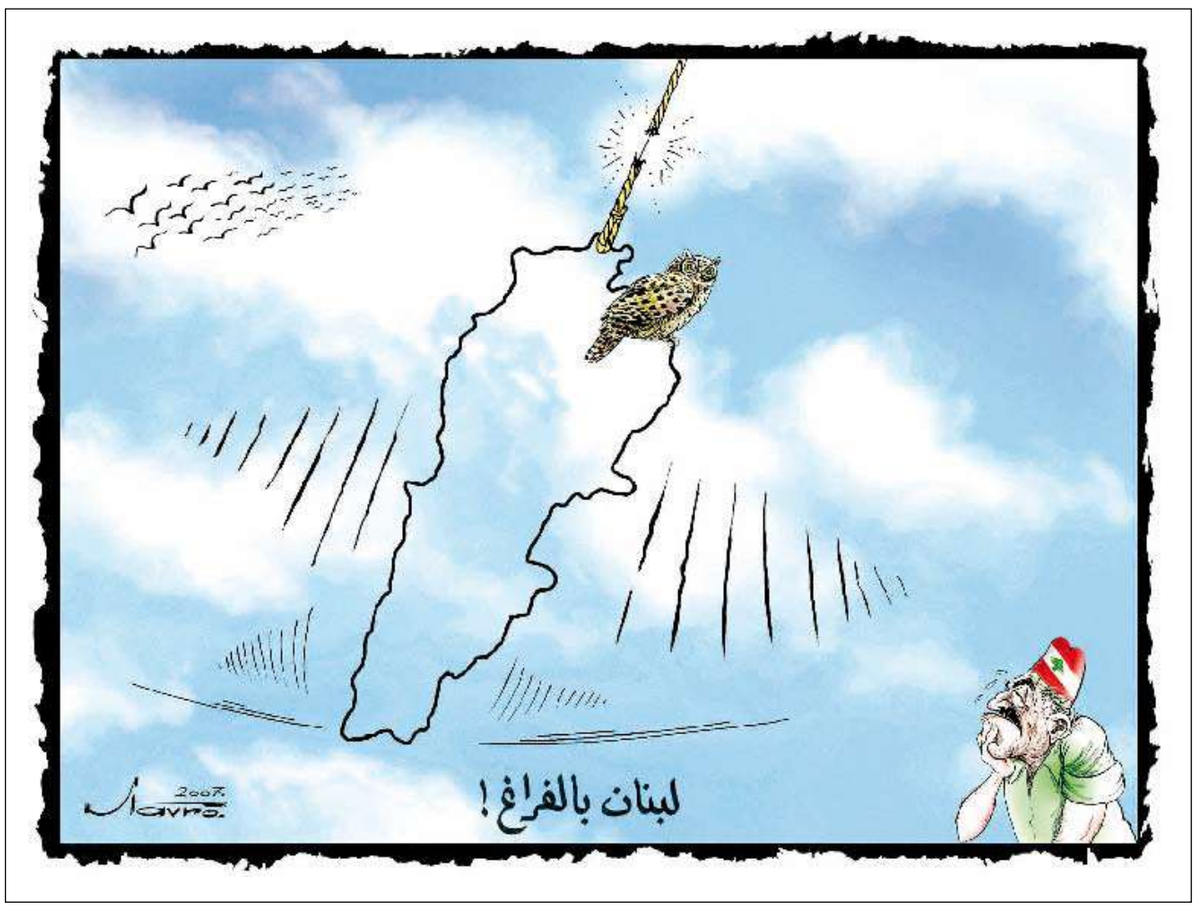

يوشكا فيشر *

نفس المشهد يتكرر في الشرق الأوسط مجدداً

كان الفيلسوف كارل ماركس يقول إن التاريخ يعيد نفسه دائماً، في هيئة مأساة أولاً ثم في هيئة مهزلة أو ملهاة. والحقيقة أننا نخشى أن تكون كامب ديفيد هي المأساة، وأنابوليس هي المهزلة. ولكن هذا هو حال الشرق الأوسط، إذ كانت كل الخطوات الناجحة من قبل نابعة من الهزيمة وليس من النصر. وهذا يعني أننا لا ينبغي لنا أبداً أن نفقد الأمل، حتى ولو بدا ذلك الأمل بعيد المنال.

ترى هل يكرر التاريخ نفسه على الرغم من كل شيء؟ تشير التطورات الأخيرة في الشرق الأوسط إلى أن الإجابة على هذا التساؤل هي «أجل»، وذلك لأن الموقف عند نهاية ولاية جورج دبليو بوش كرئيس للولايات المتحدة، أصبح شبيهاً بالموقف أثناء العام الأخير من ولاية كلينتون. فقد فكر كل من الرئيسين عند نهاية فترة ولايته الثانية في حل واحد من أخطر الصراعات في العالم، بينما يواجه خطر نفاد الوقت.

قد يصيبنا القنوط: فمن الواضح أن إدارة بوش أهدرت ما يقرب من السبعة أعوام، التي كان بوسعها في غضونها أن تسعى جدياً على مسار التوصل إلى حل لهذا الصراع. والآن عدنا إلى نقطة البداية: محادثات كامب ديفيد وطابا التي صرفت الإدارة الأميركية النظر عنها بوقاحة في شهر يناير 2001 والتي بات لزاماً على الإدارة أن تبدأها من جديد. ولكن، كما تقول الحكمة المأثورة: «أن تتأخر في القيام بما ينبغي عليك، أفضل من ألا تقوم به على الإطلاق».

إن مؤتمر الشرق الأوسط الذي ستستضيفه مدينة أنابوليس بولايات ميريلاند لابد أن يكون عبارة عن منتدى للإعداد لمفاوضات الوضع النهائي بين الأطراف، وأن يتعامل في المقام الأول مع تأسيس الدولة الفلسطينية ورسم حدودها (حدود يونيو 1967، مع بعض التعديلات التي سيتفق عليها الطرفان)، وعاصمتها (القدس)، والمستوطنات الإسرائيلية، وحق العودة للاجئين الفلسطينيين. يتعين على المؤتمر أيضاً أن يعالج القضايا الأمنية، وإنهاء حالة الحرب التي دامت عقوداً من الزمان، والاعتراف بإسرائيل من جانب الدول العربية. الحقيقة أن الوقت قد حان للتقدم على مسار الحل القائم على وجود دولتين، وذلك لأن الفلسطينيين يفقدون الأمل، مع مرور كل يوم، في إقامة دولة مستقلة لهم. وبدون إقامة هذه الدولة فلسوف يستمر الصراع في الشرق الأوسط على حاله، وتشتد حدة العنف في المنطقة.

لقد تم التوصل إلى تسويات مقبولة لهذه القضايا كلها على نحو متكرر عن طريق المفاوضات بين طرفي الصراع، ثم وُضِعت على الرف لأعوام عديدة. وكان العنصر الوحيد الغائب دوماً هو الإرادة السياسية اللازمة للتوصل إلى اتفاق سلام؟

هذا هو بالتحديد ما تفتقر إليه الحكومتان الإسرائيلية والفلسطينية، الإرادة السياسية. ذلك أن رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود أولمرت والرئيس الفلسطيني محمود عباس يعانيان الضعف في الداخل، ونظراً إلى التنازلات المطلوبة من الجانبين، فإن هذا يضعهما في موقف حرج.

ويصدق القول نفسه بالنسبة إلى الرئيس بوش. ذلك أن حكومة الولايات المتحدة لا تقف حتى وراء مبادرته عن اقتناع. الحقيقة أن وزيرة الخارجية كوندوليزا رايس تريد إتمام هذا المؤتمر، ولقد بذلت الكثير من الجهد لدفعه نحو الأمام. ولكن ما هو قدر المجازفة الذي قد يكون بوش على استعداد لخوضه؟ علماً بأن المجازفة باتت تشكل عنصراً أساسياً لتحقيق أي تقدم حقيقي.

ما يدعو إلى التفاؤل الآن أن المحظورات التي كانت قائمة بشأن «المقبول وغير المقبول» في محادثات الوضع النهائي قد سقطت جميعها الآن من الطرفين. فلقد أدى ضعف أولمرت وعباس إلى خلق نوع من الاهتمام بالتوصل إلى تسوية سلمية. والحقيقة أن كلا من الرجلين يأمل البقاء سياسياً من خلال التوصل إلى اتفاق سلام: أولمرت عن طريق عقد انتخابات جديدة، وعباس عن طريق عقد استفتاء يستطيع من خلاله أن يستعيد سيطرته على «حماس». هل ينجح إذن «سلام الضعفاء» بعد أن فشل «سلام الأقوياء»؟

مع تغير المواقف الداخلية في إسرائيل وفلسطين، فقد تغيرت أيضاً البيئة السياسية الإقليمية بصورة إيجابية. فقد أصبحت خشية أغلب الدول العربية اليوم من تمكن إيران من فرض هيمنتها الإقليمية، أعظم من خشيتها من إسرائيل. وهذا التطور يشكل في حد ذاته فرصة غير مسبوقة.

مما لا شك فيه أن الأمر يشتمل على العديد من المخاطر المستترة. فقد أصبح حيز المناورة المتاح أمام أولمرت داخل حزبه، وخصوصاً داخل تحالفه، ضئيلا جدا. هل يستطيع أن يقدم التنازلات الكافية فيما يتصل بالحدود والقدس؟ وتنطبق الشكوك ذاتها بالنسبة إلى عباس. هل يتمكن من تقديم الضمانات الأمنية التي يحتاج إليها أولمرت، ولاسيما في ظل خشية الفلسطينيين من أن يضطروا في النهاية إلى تقديم الكثير من دون أن يحصلوا على تنازلات فيما يتصل بالمسائل التي يرون فيها مطالب جوهرية؟

فضلاً عن ذلك فإن العقبة الحقيقية ليست هي المفاوضات، بل إنها تتلخص في تنفيذ ما قد يتوصل إليه الاتفاق، ولسوف تكون تكاليف تنفيذ الاتفاق باهظة التكاليف على الصعيد السياسي. فقد أصبح الفلسطينيون بالفعل في وسط حرب أهلية. ومن المرجح أن تؤدي التنازلات الضرورية من أجل السلام، إلى مواجهة سياسية صارخة في إسرائيل أيضاً. ومن الواضح أن أولمرت يفكر في الدمج بين الاتفاق على الوضع النهائي وبين آلية خارطة الطريق. فلابد أن ينفذ اتفاق كهذا بالتدريج، ولابد أن يعتمد التقدم على وفاء الأطراف بالتزاماتها مع كل خطوة من الطريق.

بيد أن مثل هذه الآلية لن يُكتب لها النجاح إلا تحت رعاية ومراقبة طرف ثالث (الولايات المتحدة و/أو اللجنة الرباعية المختصة بالشرق الأوسط). وما لم يتوافر هذا العنصر فلسوف تنشأ النزاعات بشأن التنفيذ، وقد تعود العملية برمتها إلى عبثية «رمال الشرق الأوسط الناعمة» من جديد.

وعلى هذا فمن منظور واقعي، قد يكون التوصل إلى نتيجة إيجابية في محادثات أنابوليس شبه مستحيل. فما الذي قد يجعل هذا الصراع، الذي أثبت عدم قابليته للحل في الماضي، يصبح فجأة وبدون مقدمات قابلا للحل (أو أقرب إلى الحل) بواسطة الفاعلين الثلاثة بوش وأولمرت وعباس الذين يعانون جميعاً ضعفاً شديداً في الداخل؟

كان الفيلسوف كارل ماركس يقول إن التاريخ يعيد نفسه دائماً، في هيئة مأساة أولاً ثم في هيئة مهزلة أو ملهاة. والحقيقة أننا نخشى أن تكون كامب ديفيد هي المأساة، وأنابوليس هي المهزلة. ولكن هذا هو حال الشرق الأوسط، إذ كانت كل الخطوات الناجحة من قبل نابعة من الهزيمة وليس من النصر. وهذا يعني أننا لا ينبغي لنا أبداً أن نفقد الأمل، حتى ولو بدا ذلك الأمل بعيد المنال.

*وزير خارجية ألمانيا ونائب مستشارها سابقاً في الفترة من عام 1998 إلى عام 2005، وتولى زعامة حزب الخضر في ألمانيا مدة تقرب من العشرين عاماً

«بروجيكت سنديكيت/معهد العلوم الإنسانية» بالاتفاق مع «الجريدة»

PROJECT SYNDICATE

هل ينجح «سلام الضعفاء» بعد أن فشل «سلام الأقوياء»؟